

النص

مجلة علمية نصف سنوية، تُعقد بعض بنادر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية

رئاسة التحرير

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري

الأستاذ الدكتور محمد سعيد الشقفي

الأستاذ الدكتور عبد الفتاح حسن أبو عينة

المدير المسؤول عبد الله المساجد

المجلد السابع
الجزء الأول
يناير ١٩٩٢ م
رجب ١٤١٢ هـ



استرقاق الأسرى واثار ذلك في العلاقات بين دول المغرب واوروبا خلال القرن الثامن عشر

الدكتور منصور احمد ابو خسين

ملخص البحث : يهدف البحث إلى تناول بعض جوانب ظاهرة استرقاق الأسرى من ركاب وبحارة السفن وسكان السواحل التي مارسها الأوروبيون والمسلمون في البحر المتوسط وللهذه الظاهرة في العلاقات بين الطرفين والرق والاسترقاق ظاهرتين عرفهما هذا الجزء من العالم منذ القدم ولكن فترة البحث شهدت تلاشي هذه الظاهرة من التصديقات هذا الجزء من العالم واستمرارها في إطار المتوحشات المستمرة بين أوروبا والمغرب. وقد تعود تلك الاستمرارية لبعض الخصائص الفريدة للرق في البحر المتوسط وأهم هذه الخصائص:

إن الاسترقاق كان عملية متبادلة بين ضفتي البحر المتوسط، وارتباط عملية الاسترقاق بالجو السياسي السائد في المنطقة والوضع المتميز لإرقاء البحر المتوسط عن قنوع الرقيق الأخرى من ناحية إمكانية الغداء والتجمل ونشاط الجمعيات الدينية في محاولة عتقهم.

مع بداية القرن الثامن عشر انحلت ظاهرة الرقيق إلى حد كبير من أوروبا وبدأت عملية تغيير تدريجي في موقف الشعوب والحكومات الأوروبية من الرق والاسترقاق كنتيجة مباشرة لحركة التنوير والتغيير الفكري والتطور السياسي والاقتصادي في دول أوروبا. لذا نشطت جمعيات شعبية ودينية تحاول القضاء على الرقيق وتبطل عام نشط مع الرق والاسترقاق كما نشطت الحكومات الأوروبية في محاربة استغلال دول المغرب بحجة ممارسة هذه الدول للاسترقاق ومكنت ضغوطا سياسية وعسكرية لاستعادة الرقيق الأوروبي من الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط. ولم يقابل ذلك تغيير ملحوظ في الجانب الإسلامي باستثناء حكومة المغرب في عهد مولاي محمد بن عبد الله. وقد يكون السبب في هذه الاستمرارية رغبة حكومات الشمال الأفريقي في استخدام الرقيق كعامل ضغط سياسي وعنصر مفضضة في صراعها المستمر مع الدول الأوروبية، ولكن الأمانة تشع إلى أن الحكم قضية الرقيق في ذلك الصراع رابت من حدته وبهت به وهو المزيد من العنف والقسوة.

الدراسات بالطبيعة القرصانية لحكومات تلك الدول وماكانت تصارعه على نطاق واسع من اختلاف واسترقاق من يقع في أيديهم من الأوروبيين^(١). وتسبب هذه الدراسات في الحديث عن معاناة هؤلاء

تتسم الدراسات الأوروبية عن تاريخ دول المغرب العربي بروح العدا والانعطالية الزائدة عندما تعالج فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. وتعود أسباب هذا العدا إلى ما تسميه هذه

^(١) Relations with Algeria Prior to the French Conquest (London

in Smith, Elder & Co., 1884).

(١) انظر على سبيل المثال:

R. L. Poyden, The Scavage of Christendom, Annals of French

أما الاسترقاق كممارسة والرق كتنظيم اجتماعي واقتصادي والرقق كنظرية اجتماعية فهي مؤسسات لم يخل منها مجتمع من المجتمعات الإنسانية على اختلاف مواقعها الجغرافية ومكانتها في سلم الرقي الحضاري. وكان الصالح للرق اقتصادياً بصورة رئيسة، فلقد بقي للرق، ولدة طويلة، عاملاً فعالاً ومهماً في النشاط الاقتصادي بشعبيته الزراعية والحرفية في مناطق أوروبا المختلفة والعالم الإسلامي؛ إلى جانب استخدامه في الخدمة المنزلية وبعض المؤسسات العسكرية. كما مورس هذا النظام في حضارات الهند والصين، ومارسته القبائل والشعوب الأفريقية، ونجدته منتشرة كذلك في حضارات أمريكا الوسطى الإنديّة كالآزتك والمايا وغيرها.^(١)

أما في الفترة موضوع البحث فإننا نجد أن كلاً من الحضارتين الإسلامية والأوروبية قد تجاوزتا مرحلة محورية الرق أو القنانة في النظام الاقتصادي والاجتماعي. ففي منطقة الحوض الغربي للمتوسط - وهي منطقة التقاء تلك الحضارتين بكل أشكال الالتقاء من حرب وسلم واحتلال متبادل وهجرات في كافة الاتجاهات، عسكرية أحياناً وسلطوية في أحيان أخرى، وتبادل تجاري وثقافي وحضاري استقر لحالت عديدة من السنين - ساد في الجانب الأوروبي نظام

الرفيق واوضاعهم السيئة في مدن الشمال الأفريقي.^(٢) والواقع أن لهذا التحول بعض ما يبرره. إذ يبدو الرق في القرن الثامن عشر وفي منطقة البحر المتوسط بالذات مؤسسة رجعية تتناقض تناقضاً صارخاً مع روح عصر التنوير والثورة الفرنسية، ليس لها ما يبررها في ظل التقدم الاقتصادي والتكنولوجي الذي شهده ذلك القرن.

وهذا البحث محاولة لمعالجة بعض جوانب ظاهرة الرق في الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن الثامن عشر بهدف فهم الأسباب التي سمحت لتلك الظاهرة بالاستمرار في وقت لم يعد هناك فيه حاجة اقتصادية أو اجتماعية لوجود الرقيق.

الرق

الرق هو النظام الذي يسمح لشخص ما أو مجموعة من الأشخاص بتقييد حرية فرد أو أفراد يطلق عليهم الرقيق وإجبارهم على ممارسة عمل أو تقديم خدمات ويكون ناتج ذلك العمل أو الخدمة بالإضافة لشخص الرقيق نفسه ملكاً لغيره لذلك الشخص أو المجموعة يتصرف فيه كما يشاء ضمن حدود متعارف عليها تختلف في التفاصيل من زمن لآخر ومن مكان لآخر.

(١) انظر الكتبة الأوروبية بصفحات الكتب والمقالات التي تتحدث عن

مخاتك الأحرار الأوروبيين في بلاد المغرب ويوجد بعض هذه الكتب

إلى القرن السابع عشر، انظر على سبيل المثال:

F. Brinkley, *Barbarian Cruelty: A True History of the Dismal Condition of Christian Captives under Muslim Inland* (London: n.p., 1982).

ومن آخر مصدر في هذا المجال كتاب

E. Cheval, *The Barbary Slave* (New Jersey: Barnes and Noble Field, 1977).

وهناك العديد من السير التي كتبها بعض من شاء لهم نظام الخروج في الأسر في شمال إفريقيا والتي يصف فيها كآبتها أحوالهم وأحوال أسرهم من الرقيق.

(٢) حول موضوع الرق انظر: عبد السلام التريكتوني، الرق،

مطبعة وحلقة (الكوت) - عام المرفأ، ١٩٧٦م. - وهو كتاب

قوم بعضي تاريخ الرق منذ القدم المصنوع وانظر كذلك:

W. Rieu, *Slavery and Freedom* (Oxford: Oxford University Press, 1982).

ويتناول مقال هذا الكتاب ظهور مؤسسات الرق عبر العصور.

« وعن كتاب كما هو يوضح شلما مقال الكاتب من الجزائر لما

في القرن الثامن عشر، في ص ٧٠.

"All that can be said of the Algerians is that they made the trade in Christian slaves their principal branch of Commerce, and that they continued their detestable practices to a period when they were generally repudiated by public opinion and laws of nations."

وانظر كذلك:

L. de Bonifant, *La guerre et le gouvernement de l'Algérie* (Paris: Sagner & Son, 1975).

وأيضاً:

F. Boyer, "Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger."

وأيضاً:

F. Boyer, "Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger," *Revue Africaine* (1966): 297-306.

وانظر كذلك:

G.N. Clark, "The Barbary corsairs in the seventeenth century" *Cambridge Historical Journal*, Vol. XVIII: 23-35.

لثمان عشر كانت عمليات الاسترقاق مستمرة من قبل الأوربيين لمن يقع في أيديهم من المسلمين، وبالمثل استرق المسلمون من يأسرون من الأوربيين خلال العمليات الحربية المستمرة أو أعمال القرصنة أو الاختطاف من المناطق الساحلية والجزر^(١). وفي ظل اضمحلال نظام الرق في العالمين الإسلامي والأوربي في تلك الفترة وذوال أهميته الاقتصادية تبدو ممارسات الرق هذه وكأنها ظل يلق لنظام عفى عليه الزمن، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن القرن الثامن عشر كان فترة سلام نسبي في العلاقات بين العالمين الإسلامي والأوربي، إذ انتهت محاولات العثمانيين لاحتلال فيينا كما لا تجد أي تكرار لمحاولات إسبانيا أو إنجلترا الهابسبورج لد نفوذهم إلى الشمال الأفريقي-بل وحتى الجيوب الأسبانية أو البرتغالية هناك ثم إخلاء معظمها سلماً أو حرباً^(٢). وقد سلاطين المغرب ودايات الجزائر ودايات تونس معاهدات صلح وسلام مع الممالك الأوربية المختلفة كالسويد وبرنسا وبريطانيا والدويلات الإيطالية^(٣).

زراعي هو خيط من بقايا الإقطاع والفئدة إلى جانب نظام الملكية الصغرى الحرة والزراعة التجارية حول المدن الكبيرة الناشئة. وانتشرت في الأرواف جموع الفلاحين الأحرار المعدمين الذين يعملون بالأجر أو مقابل جزء من المحصول. ونجد في الجانب الجنوبي من البحر المتوسط نظاماً مشابهاً، كملكية المشاع في مناطق العضاير العربية الثنية؛ والملكية الصغرى في مناطق القبائل ونظام الضعاسة في مناطق الزراعة للكتيفة. أما الصناعة الحرفية فقد احتواها نظام الـ (Gild) في الجانب الأوربي ونظام الاصناف أو الطوائف الحرفية في المناطق الإسلامية. أما عن أسباب تدهور وضمحلال نظام الرق في كل من هذه المجتمعات فقد تناولهما الباحثون بالتفصيل مما يلغى عن التكرار^(٤).

الرق والرقيق في حوض المتوسط في ق ١٨

ولكن الرق والاسترقاق لم يختف تماماً من حوض البحر المتوسط إلا في فترة متأخرة جداً. فخلال القرن

(١) التيوم (الجزائر) الشركة الإيطالية للنشر والتوزيع، ١٩٧٦م). من ص ٢٠٢ - ٢٢٩. وفي سنة ١٦٨٤م حرق مولاي إسماعيل مدينة طنجة من الإحتجاز الذين كانوا قد استولوا عليها، وفي سنة ١٦٨٩م قام بتحرير مدينة العرائش على سبيل المسبة الأطلسي وذلك بمساعدة من الملك لويس الرابع عشر. وفي ١٦٩١م تم تحرير مدينة أصيلا انظر الشيخ أبو العباس لحد من خلف الناصري. كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق وإحقيق جعفر الناصري بمسند الناصري (دار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٩٦م)، ج ٧، ص ٦٧ - ٧٧. وفي سنة ١٧٥٠م حرق على بلقا باي تونس طبرقة من يد الجنويين، انظر أحمد بن أبي الشريف. الملوك أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. تحقيق لجنة من كلية الدولة للعلوم الثقافية والإرشاد (تونس: كلية الدولة للعلوم الثقافية والإرشاد، ١٩٧٧م)، ج ٢، ص ١٥٤، ١٥٢.

(٢) كانت فرنسا من أول الدول التي عقدت معاهدات مع الجزائر في سنة ١٦٦٩م ولكن الوضع بقي مضطرباً إلى القرن السابع عشر ولم تصبح العلاقات شبه ملينة إلا مع اتفاقية سنة ١٦٨٩م التي فتحت فترة ما يسمى بسلام الفتنة بين فرنسا والجزائر ١٦٩٠ - ١٧٩٠م. وفي سنة ١٧٠٧م عقدت الدولة العثمانية معاهدة مع البندقية لتقبل دول شمال أفريقيا. وفي الفترة نفسها عقد البلقينيون الصلح مع الجزائر، وفي سنة ١٧١٧م عقدت الدولة العثمانية الصلح مع حكومتها النمسا والبندقية. وفي سنة ١٧٣٧م تم عقد اتفاقية صلح وسلام بين الدولة العثمانية والسويد ملزمة الثلاث المغرب. وفي ١٧٦٤م عقدت الدولة

(١) لا يكون الفصل من تناول بالبحث الشيخ الاتصافي لنظام البحر المتوسط في بداية العصر الحديث هو:

F. Baudet, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, - vols (n. p. : Harper and Row, 1974).

(٢) انظر بالتفصيل هذه الفترة بمسندها التاريخي بمئات التفصيل حول الممارات السلطانية وممارات الامراء على السفن وأعمال القرصنة واسترقاق المسجونين والبشارة وبيعهم والتجارة فيهم. وليس من الغرائب بعدة مصدر. مثل بشارت لتبع هذه الممارات والصوائد ولكن لا يكون من الغريب هنا ذكر أهم التراجع التي أحدثت بهذا الموضوع والقوت القاصية. عزيز صلح القرا. الاتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة د. محمد علي حمر (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٩م).

Playbe, Sengue, H. D. de Grammont, *Moors d'Alger sous le domination Turque* (Paris: Lamm, 1987); E. Marnet, *Moors de l'Afrique septentrionale depuis les temps plus anciens jusqu'à l'empire Français*, 3 Vols. (Paris: Lamm, 1981).

ومن المصادر المهمة في هذا المجال الوثائق المنشورة في Albert Davet, "Le régime des peaux maritimes," *Revue de l'histoire* XV : 76-79, 146-69, 184-201, 265-99, 363-74, 465-87, XVI: 76-77, 146-56, 233-40, 280-280.

(٣) استبد الجزائر بين يهران سنة ١٧٠٨م على يد الداي محمد بك الذي هبطت كل معلومات الأسبان لاستغلالها. انظر: محمد ابن ميمون الجزائري، القصة القرصية في الدولة العثمانية في بلاد الجزائر الحربية، تحقيق وتقديم الدكتور محمد بن محمد

الحربية والتجارية، وفي حدود ما هو متوفر الآن من مضان فإن من الصعب إعطاء إحصاء واقعي لأعداد الرقيق عند الطرفين ولكن بالإمكان إعطاء تقديرات مقبولة نوعاً ما لأعداد الرقيق في بعض المدن والمناطق المتوسطة، وتعطي المصادر انطباعاً بأن أعداد الأرقاء - وبخصوصاً على الجانب الجنوبي - لم تكن بالأعداد البسيطة. ففي إحدى الدراسات عن الرق يذكر المؤلف أن عدد الأرقاء المسيحيين في الجزائر سنة ١٧٦٧م كان ٧ آلاف شخصاً.^(١٦) وإذا علمنا أن عدد سكان مدينة الجزائر كان يقدر في الفترة نفسها بحدود خمسين ألف.^(١٧) ندرك أن نسبة هؤلاء الأرقاء كانت تصل إلى ٢٠٪ من عدد السكان. وقد تكون مدينة الجزائر في هذا المجال حالة خاصة، إذ أن أسطولها البحري كان من أكثر الأساطيل نشاطاً في مجال الجهاد البحري والفرصة والاسترقاق، إلا أن المصادر تشير كذلك إلى انتشار الرقيق بأعداد متقاربة في مناطق الحوض الغربي للبحر المتوسط كافة.^(١٨)

وكان آخر هذه المعاهدات تلك التي عقدت بين إسبانيا والجزائر وانتهت ثلاثمائة سنة من الحروب المستمرة بينهما.^(١٩) وعرفت مدن الشمال الأفريقي في هذا القرن انتشار السفارات الأوروبية على نطاق واسع^(٢٠)، كما تعاطفت التجارة بين المنطقتين إلى حد كبير تشهد عليه ازدهار حركة الملاحة بين موانئ الشمال الأفريقي وجنوب وغرب أوروبا وتزايد البيوت التجارية التي حصلت نشاطها في التجارة بين المنطقتين.^(٢١)

ولكن ما يبعث على الاستغراب هو أن هذا النشاط السلمي لم يمنع استمرار عمليات الاسترقاق المتبادل بين الطرفين، بل يبدو أن ازدياد فرص الالتقاء وكثافة النشاط البحري بينهما زادت من فرص هذه الممارسة التي لم تنقطع منذ العصور الوسطى. وهكذا توارى إلى شواطئ البحر المتوسط سيل من الرجال والنساء والأطفال تلقفتهم أسواق النخاسة وخانات العبيد وقصور الأمراء وطلبة القوم أو مقاعد التجديف في قيعان الخليجيات والسفن

فتصل المدينة القلبيّة، إنجلترا وفرنسا والسويد وبلجي والهندية والنمسا وهولندا وسبانيا والنمسا لهم في آخر القرن فتصل إسبانيا والبرتغال والولايات المتحدة. كما كان إنجلترا فتصلها في طرابلس الغرب، تونس والجزائر ومطلة وهران بطنجة وفاس. (١٠) حول النشاط التجاري في البحر المتوسط في هذه الفترة انظر

M.F.E. de Lapremière, *Le Commerce et la Navigation de L'Algérie avant la conquête française* (Paris: Hachette, 1905).

انظر كذلك

André-B. Sayon, *Le Commerce des Européens à Alger* (Paris: L'Asiatique des Sciences Coloniales, 1939).

Cheslé, *The Barbary Slave*, p. 22. (١١)

(١٢) جاسم عبد القادر علي، مدينة الجزائر تحتها وتطورها قبل ١٨٥٠م (الجزائر: الطبعة الحربية دار الفكر الإسلامي، ١٩٧٢م)، ص ٢٥٥.

(١٣) يذكر جراسون أن عدد الأرقاء المسيحيين في تونس في أواخر القرن الثامن عشر الهجري كان ١٤٠٠.

M.D. de Guesnes, *Histoire d'Alger sous la domination espagnole* (Paris: Lacroix, 1887), p. 234.

ويذكر قاسمي أن عدد أرقاء مولاي إسماعيل سلطان المغرب المتولي سنة ١٧٧٦م كان ٢٤٠٠٠. قاسمي، *الاستعمار*، ص ٧.

لما في الجانب الأوربي فذكر الدكتور جوتزلي أن ٢٧٪ من سكان سبانيا في الفترة موضوع البحث كانوا من أرقاء المسلمين

A. Guesnes Requier, "Les esclaves espagnols et les pirates

المغربية مسلحاً مع هؤلاء لتطيق شريطه على ليلالات الحرب يتم عقد صلح مماثل مع سبانيا سنة ١٧١٢م وإلى سنة ١٧١٧م تم عقد معاهدة سلام بين المغرب وفرنسا. وبعدها بفترة وجيزة عقد ملك المغرب الصلح مع النمسا والسويد. وفي الفترة بين ١٦٥٥م إلى سنة ١٨٧١م وقعت الجزائر مع إنجلترا ١٨ اتفاقية بعضها يمثل معاهدات صلح وسلم والباقي تأكيد أو تعديل لتلك المعاهدات التي جملتان، معاهدات الجزائر، مع فرنسا ١٦١٩ - ١٨٧٠ (الجزائر ١٩٨٧م) الذي يرد ترجمة عربية لتصور من معاهدات الجزائر مع فرنسا من سن ١٦١٩ إلى ١٨٧٠، نشر الإتحاد العلمانيون ص ٢٢٥، ١٧٠، ١٦٩، ١٧١.

Le Bailli de Tatin, *Récueil des traités de la Porte Ottomane avec les puissances étrangères* (Paris: Chez, Les Auteurs, 1864); E. Roussé de Châteauneuf, *Traité de la France avec les pays de l'Afrique du nord: Algérie, Tunisie, Tripolitaine, et Maroc* (Paris: Pléssier & Gauthier, 1904).

(١٤) عقدت إسبانيا صلحاً مع المغرب سنة ١٧٦٥م وتم تبادل الأسرى بين الطرفين ونتيجة لهذه مولاي محمد بن عبد الله التمس المفاوضات بين إسبانيا والجزائر وتم تبادل الأسرى بينهما ولكن الصلح لم يقدّر بينهما إلا في سنة ١٧٦٢م. انظر: أحمد تقي الدين، *حروب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وسبانيا* ١٥٩٢ - ١٧٩٢م وشوقي ودراسات إسبانية الشبكة البربرية لنشر والتوزيع، ١٩٦٨م.

(١٥) كان في منتصف القرن في مدينة الجزائر على سبيل المثال،

تزوج ما تبقى من تلك الغلايين بكلماتها من الأفراد الذين كان يحكم عليهم بالتجديف لسنوات طويلة. والمصادر الأسبانية والإيطالية تبين الصعاب التي كان يواجهها النخاسون الأوربيون في بيع مملوهم من رقيق. وتتلقى أسواق النخاسة، لا بسبب ضغط الحكومات، كما يدعي بعض المؤرخين، بل لانعدام الطلب على تلك السلعة الأدمية.^(١٤) حتى إن آخر سوق للنخاسة في البندقية وجنوا انفلا في النصف الأول من القرن الثامن عشر واختفى أرقاء البانتو من ليغورنه في النصف الثاني من ذلك القرن.^(١٥) وهكذا نرى نسبة متزايدة من الأرقاء المسلمين يساقون إلى أسكن أشبه ما تكون بمعسكرات الاعتقال الحكومية بينما ما يتم شراؤه أو استخدامه من قبل الأفراد أو المؤسسات من الرقيق كان في تناقص مستمر.^(١٦)

وفي الساحل الجنوبي نصف لنا الوثائق المعاصرة الزدافات العديدة من مختلف أصقاع أوروبا ومختلف فئاتها الاجتماعية التي مرت بأسواق النخاسة في مدن سلا وأسفي وطنجة وتونس والجزائر.^(١٧) وكان هؤلاء الرجال والنساء والأطفال إما ضحايا الصليبات الحربية التي استهدفت السفن الحربية وسفن التجارة والركاب، أو ضحايا لعمليات اختطاف من السواحل الأوربية الجنوبية.^(١٨)

وما يبعث على الدهشة هو أن استمرار ظاهرة الاسترقاق المتبادل هذه تأتي خلال فترة فقد فيها الرق جدواه الاقتصادية والعسكرية. بل يبدو وكأن هذا النوع من الرق كان يمثل عبئاً على حكومات كلا الطرفين. ففي الجانب الشمالي من البحر المتوسط كانت الزيادة الديموغرافية في القرنين السادس عشر والسابع عشر قد سعت كل ثلث لثقة الأيدي العاملة التي تبعت وياه الطاعون الذي اجتاح أوروبا في القرن الرابع عشر وقضى على أعداد ضخمة من السكان. وكان القرن الثامن عشر نفسه فترة انفجار سكاني في غرب أوروبا مهدت الطريق للتورثين الزراعية والصناعية. ولقد كان لهذه الزيادة الأثر الحاسم في القضاء على القنانة وبقايا نظام الرق المؤقت أو الخدمة الإجبارية.^(١٩) إذ كان في توافر الأيدي العاملة الأوربية ورفضها ما يعني عن الحاجة للعمل القسري.

من ناحية أخرى جعل التقدم العلمي والتكنولوجي في مبدآن الملاحة وبناء السفن من المراكب الحديثة بديلاً ممتازاً عن الغلايين القديمة التي كانت تستخدم المجاديف، تلك الغلايين التي قهرت الألوف من الرقيق المسلم في العصور السابقة. كما كانت المحاكم الأوربية في هذا القرن

(Gibson, Overmire, Hillard and Co., 1802), 70.

(١٤) انظر على سبيل المثال: Albert Devroey, "Le négrier",

انظر كذلك: E. Bingham, *San Feliu Residence in Algiers 1806-1807* (London: Sponson & Co., 1819).

(١٥) انظر الإنجليز بسطيف الركاب ويومهم قام ببيع أحد من مملوهم لك إذ كانوا يشتغلون الاتراك ويومهم في ليغورنه بإيطاليا، ولذا استوفوا الجزائريين ويومهم من الأسبان أو الإيطاليين أو اللطيفين انظر: *Payson, Source*, p. 12, 42, 77, 92, 147. ويلاحظ أيضاً أن الطنكيون يشتغلون الإنجليز ويومهم الجزائريين. وفي أيام السلم بين الإنجليز وبسطل أفريقيا نجد الإنجليز يشتغلون الصليبيين من السفن والأرقاء الأسبان والإيطاليين ليومهم في الجزائر وطنجة وسلا انظر: *Payson, Source*, p. 36.

من ناحية أخرى نلاحظ الجزائر في مهجعة السفن الأوربية طوال القرن وأخيراً على السواحل المغربية والإيطالية بينما تنحصر مهجعة سلا في الهجوم على السواحل الأسبانية وسفن المصيد الألفي. وكلاً ما يهدد الجزائريون والقارية يومهم كما حدث عندما تمركزوا في جزر الرأس الأخضر في مهجعة السفن الفلمنكية من الهند، انظر: *الأتراك العثمانيون*، ص ١٧١.

dans les des expéditions de la Méditerranée (1530 - 1789), in

Revue D'Histoire Maghrébine, vol. 53-54: 101-122, 130.

يقول الشيخ الناصري أن عدد الأرقاء للمسلمين لدى أوروبا سنة ١٦٧٠هـ/١٧٨٥م كان طينانية وأربعين ألف أسير وزيادته الناصري، الاستغناء، ج ٨، ص ٧٠.

(١٦) انظر بالرق المؤقت أو الخدمة الإجبارية: *Indemned service*.

(١٧) انظر لسلا زوال الرق في أوروبا في التيماني، الرق.

(١٨) J.P. Philippot, "L'Europe et l'Afrique du Nord au 18e siècle", *Revue D'Histoire Maghrébine* No. 7-8 (1977): 123-140, 130.

(١٩) انظر أيضاً لأحد هذه المستندات في محمد بن عثمان المكاني، *الخصير في فقه الأصغر*، تطبق بتطويع محمد الثاني (الرباط: المركز الجامعي للبحث العلمي، ١٩٦٥م)، ص ١٦٨-١٧١. ويقول شارل في كتابه: منذ أن أفلحت الجزائر الفرنسية من قبل الأفراد (سنة ١٧٧٠م) أصبح كافة الأسرى عبيداً لمملكة الأقاليم الجزائرية فقط ولقد لهم السكينة كل راحة ومجانية من تصاريح المراقبين، ومن العمل أن يقال أن حكمهم من بصيرة حكمة ليس أسيراً من حال أسرى الحرب في أي بلد مسيحي متعصب.

W. Baker, *Slavery of Algeria, Political History and Civil*

للبيك، وكثيرا ما زاد رواد هذه العائلات من أهل البلد عن روادها من الأرقاء أو المسيحيين للقبيلين في الجزائر.^(٢١)

وكان هؤلاء الأرقاء أحراراً خلال النهار يمارس بعضهم مهنة يعتاش منها على أن يدفع جزء من دخله للدولة أو يتم استخدامهم من قبل الجهات الحكومية في أعمال البناء المستمرة في المنشآت العسكرية كالحصون والقلاع والأسوار المحيطة بالمدينة أو في الحواض السفن أو غيرها من الأعمال، وكان توزيع الأعمال يعتمد على القدرات الشخصية لهؤلاء الأرقاء أو وفقاً لجنسياتهم أو مكانتهم الاجتماعية أو أصلهم السابقة.^(٢٢)

ولا يبدو من المصادر أن وجود رقيق البيك كان ضرورياً للدولة أو لأعمالها، بل على العكس يبدو أنهم كانوا يعملون عملاً عليها، فمعظم الأعمال التي كانوا يقومون بتأديتها كان بالإمكان إنجازها من قبل مواطنين محليين بأجر زهيد كما توحى بذلك معدلات الأجور أو عن طريق السفرة التي كانت السلطات في شمال إفريقيا تمارسها، خصوصاً في أوقات الأزمات، للحصول على خدمات الأفراد دون أي مقابل أو تكلفة. بينما كانت الدولة مسؤولة عن تقديم حد أدنى من الرعاية لأرقائها وحراستهم كما كان هذا الرقيق مصدر قلق وإزعاج مستمر للسلطات. ففي أوقات

وكان العرب السائد أن يأخذ الحاكم عشر عدد هؤلاء الأرقاء أما الباقي فيتم بيعه واقتسام الثمن بين البصارة والمصارين وأصحاب السفينة وبعض الموظفين الحكوميين وفق أعراف متفق عليها.^(٢٣) ورغم شحة أعداد السكان في المناطق الإسلامية بالمقارنة بالمناطق الأوربية إلا أننا نجد نمط استخدام الأرقاء في المنطقتين متشابهاً، فلو أخذنا مدينة الجزائر، على سبيل المثال، وهي المدينة التي تتوافر عنها معلومات أكثر لوجدنا أن نسبة عبيد البيك وهم الأرقاء الذين أصبحوا من نصيب السلطان - إما كجزء من الحصة الأصلية أو لعدم وجود من يرغب في شرائهم أو لعدم رغبة الحكومة في بيعهم - في تزايد مستمر بالمقارنة مع الأرقاء الذين كانوا في أيدي الأفراد.

كان عبيد البيك هؤلاء يجمعون في بنايات ضخمة بلغ عددها خمس في أواخر القرن الثامن عشر ووسمها الأوربيون البانيو، ويصنع الأرقاء في هذا البانيو في غرف يتجمعون فيها وفق جنسياتهم ولا يظفر بعضهم من كنيسة يشرف عليها رجال دين مسيحيين في الفترات التي يسمح فيها الحاكم بذلك وخصوصاً في الفترات التي يسود السلام بين الجزائر وأوربا. كما كان كل خان من هذه الخانات يحتوي على حانة يتولاها أحد الأرقاء مقابل رسم يدفعه

(٢٠) هناك اختلاف بسيط في العرب السائد في تقسيم الرقيق بإقليم القروينة ولكن من الممكن القول أن حصص التقسيم كانت بصورة تقريبية على النحو التالي -

٢١٠ قروي أو الهادي أو الحاكم

٢١ لسيطات إصلاح لبيات.

٢١ القسطنطيني أو القسطنطيني

٢١١ ملك السلطنة.

أما الباقي وهو ما يقارب ٢١١ من القنينة فيتم توزيعه إل حصص بعض الصالحين على ظهر السلطنة. ويختلف نصيب المشاركين من المصنوع أو الأسهم على الشكل التالي -

الرئيس أو القبطان ١٠ حصص

الأغا رئيس الشرطة ٢ حصص

القائد ٢ حصص

رئيس القلائد ٢ حصص

الطبيب أو الجراح ٢ حصص

الانكشارية حصتان قروائد

الطوبجية أو المدفعية حصتان قروائد

البنارية حصتان قروائد

المنشورية حصان واحدة قروائد

وغيره من التفاصيل انظر

Per Pierre Duss, *Histoire de Kabylie et des Comores* (Paris, 1877), pp.261-66.

(٢١) لم تكن مدينة الجزائر هي المدينة الوحيدة التي اعتياد على «البانيو» وإن كان بانو الجزائر هو الأكثر شهرة ويوافر عنه الكلام من الملاحظات لشهرة العديد من القروائد فيها وكثيراً ما كان يتم إرسال الرقيق في مدينة الجزائر أنظر تطبيق رقم (٢٠) ورأى (٢١) - فيما يتعلق المدينة الجزائر كان ملكه بانو في مدينة البويرة وأخر في جندية ملطاف.

Bredel, *The Mediterranean*, vol. 2, p. 887.

أما في المغرب فكان الرقيق يصلون نهراً (بيبيتون لوبلا في المغرب) وهو في عهد المظاربة عرقى تحت الأندلس، القسطنطيني، الإنكشارية - ج. ٧، ص ٢١.

(٢٢) Chabrol, pp.39-41

مجموعتين في مستوى حضاري متقارب تقوم كل واحدة منهما باسترقاق من يقع في يداه من لقواد الطرف الآخر، فعند العصور الوسطى والأوربيين يقومون باسترقاق المسلمين ويقوم الآخرون باسترقاق الأوربيين، وإذا كان استرقاق الصقلية في المشرق معروف ومثبت ومتواتر فاسترقاق سكان الأندلس والمغرب للأوربيين الغربيين هو أيضا من الأمور المتواترة والمعروفة، وبالمثل قام المسيحيون الأسبان باسترقاق المسلمين في الأندلس. ولقد أقررت حرب الاسترداد سيلا لم ينقطع من الأرقاء من الجانيين، وبعد سقوط غرناطة لم تتوقف عملية الاسترقاق ولكنها انتقلت إلى البحر، وكان الاسترقاق المتبادل جزءا لا يتجزأ من ذلك الصراع الذي شهدته مياه البحر المتوسط طيلة القرون الثلاثة التي تبعت سقوط غرناطة.

٢ - العلاقات الدولية في الحوض الغربي للبحر المتوسط

الخاصة الثانية تتعلق بطبيعة العلاقات الدولية التي كانت تسمو منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط في الفترة موضوع البحث. فلقد كان القرن الثامن عشر فترة لا يمكن أن توصف إلا بتعبير ساد مؤخرا هو تعبير (حالة اللاسلام واللاحرب) قد يكون السبب الرئيس فيها هو غياب السيطرة الواضحة على مياه المتوسط لأي طرف من الأطراف المطلة عليه. إذ بعد انحصار القوة البحرية الأسبانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر والتي كانت في صراع مستمر مع القوى العثمانية تعادلت الكفة بين فرنسا وبريطانيا في الشمال، وبقيت الجزائر في الجنوب قوة

الأزمات كان يتم تقييدهم وحبسهم وتشديد الحراسة عليهم، خشية تواطؤ هؤلاء الأرقاء مع الدول الأوربية.^(٢٧)

خصائص الرق في البحر المتوسط

ولكن إذا كان نظام الرق في منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال الفترة المعنية بهذه الدراسة غير ذي جدوى اقتصادية فما هي الدوافع التي أبقت على هذا النظام ؟ إن أي محاولة للإجابة على هذا السؤال لابد أن تأخذ بعين الاعتبار مجموعة من الملاحظات تتعلق بخصائص معينة للرق في الحوض الغربي للبحر المتوسط تميزه عن غيره من أنظمة الرق المفروضة في العالم، وتتعلق هذه الخصائص بممارسة الاسترقاق المتبادل بين أوروبا والعالم الإسلامي، وطبيعة العلاقات الدولية في حوض البحر المتوسط وأخيرا الوضع الخاص الذي كان يميز رقيق البحر المتوسط عن غيره من الرقيق في العالم. وسنحاول فيما يلي استعراض هذه الخصائص كمسغل للإجابة على السؤال المطروح.

١ - الاسترقاق المتبادل

إن أول ما يميز الرق في الحوض الغربي للبحر المتوسط عن غيره من أنماط الرق في العالم هو أن الاسترقاق كان عملية متبادلة بين ضفتي البحر المتوسط. إذ بينما نجد الرق في الغالب يقع في اتجاه واحد كان تقوم مجموعة عرقية أو سياسية أو اجتماعية باستعباد مجموعة أخرى وبإستمرارية رتيبة كقيام البيض باستعباد الأقليات لقيام حكام المسلمين باسترقاق المماليك الترك وغيرهم، نجد هنا

(٢٧) كان النسيب من هروب الأرقاء أو تسليمهم أو تدميرهم مع القوى العظمى مثالا، ولما في أذهان السلطات. ولم يكن ذلك الخطف بدون مبرر ففي سنة ١٥٢٩م في وقتنا المجهيم الإسباني على الجزائر تمخض الفكر من ٧٠٠ عبد أوربي وانضموا للمجموع اما في سنة ١٦٦٢م اشتراك هؤلاء في ثورة للأمازيغ على السلطات التركية في مدينة الجزائر، الذين الاتوا العثمانيون، ص: ٩٥، ٩٦. كما ذكر هؤلاء العبيد مرات عديدة الفسحة خلال القرن الثامن عشر سنة ١٧٥٢م وسنة ١٧٦٢م في مدينة الجزائر، انظر: الاتراك العثمانيون، ص ٩٦، ٩٧.

لما حالات العروب والشاير مع القوى الخارجية فهي لا تسمى

انظر

Pholien, *Seigneurs*, p. 153, 171, 180.

وانظر كذلك

Boudier, *The Middle Ages*, vol. 2, p. 874.

انظر: الاتراك العثمانيون، ص ١٠١، ١٠٢.

وهكذا نجد حكومات المغرب تصرص في أثناء الأزمات الاستثنائية وعند تعرضها للتهديد أو الهجوم الخارجي، على تقييد حرية الأرقاء أو حبسهم أو تسليمهم إلى الله لئلا يهدأ عن السواحل أو إلى من ليس لهم أناة، انظر انظر الاتراك العثمانيون،

ص ٩٦، ٩٧، ٩٨.

في صراع مع واحدة أو أكثر من الدول الأوروبية.^(٢٣) وكان تبادل الأعداء والحلفاء أمراً طبيعياً في هذه الفترة، كما كان انتهاك المعاهدات وعدم الالتزام بها يمثل القاعدة لا الاستثناء.^(٢٤)

من الطبيعي أن يترك هذا الجو من الاضطراب الذي يغذي ركاب قرون من العداء والصدام المسلح وانعدام الثقة، ظلاله على أوجه العلاقات بين أوروبا وشمال أفريقيا كافة. فسنوات السلام تتخللها فترات من العنف والصراع المسلح، وأعمال التجارة يفصلها خيط رفيع عن أعمال النوب والاستغلال، والنشاط العربي يختلط بأعمال القرصنة، لذا لا مجال للفراة إن تحولت مؤسسة الرق من نظام اقتصادي اجتماعي إلى مؤسسة لا تخضع للاعتبارات الاقتصادية.

٣ - توضيح الرقيق

لما الخاتمة الثالثة فتتعلق بالوضع الفعلي للرقيق في كلتي المنطقتين بالمقارنة بوضعهم القانوني، إذ بينما اعتبر كل طرف من الأطراف من وقع في يده من أفراد الطرف الآخر أرقاء وعبيد من الناحية القانونية يجري عليهم كل ما يجري على الأرقاء من معاملات

بحرية لا يستهان بها استطاعت بعد عقد الصلح مع إسبانيا في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر الخروج من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي وشن هجمات على سفن أعدائها وبالذات الولايات المتحدة في أماكن متعددة من ذلك المحيط^(٢٥) وإلى جانب هذه القوى الثلاث شهدت مياه البحر المتوسط حشداً كبيراً من القوى البحرية الأخرى كالإنجليز والهولنديين والاسكتنديين والديولات الإيطالية والتونسيين والليبيين والمغاربة.

وأقر هذا الوجود نشاطاً تجارياً وسياسياً كثيفاً تمثل بالتبادل التجاري وسبل السفارات والمعاهدات التي لم تنقطع في هذه الفترة.^(٢٦)

ولكن هذا النشاط السلمي لم يكن هو النمط الوحيد السائد للعلاقات بين مختلف القوى المطلة على البحر المتوسط ففي الشمال كانت القوى الأوروبية في حالة صراع بعضها مع بعض أو في صراع مع دولة أخرى من دول الشمال الأفريقي، وكانت الحالة بالمثل بالنسبة لهذه الدول الأخرى، فإلى جانب الصراع المستمر بين الجزائر وجارتها تونس والمغرب كانت كل من هذه الدول تجد نفسها بين فترة وأخرى

(٢٤) حول الصراع بين الولايات المتحدة والجزائر يتفصيل الفرات الجزائرية انظر:

Ray W. Insan, *The Diplomatic Relations of the United States with the Barbary Powers, 1776-1816* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1934) pp. 37-68.

(٢٥) كان الفرنسيون مراكز تجارية في القارة في تونس وصاية في الجزائر وكان لجنوا مركزاً في طبرقة والفرنسيون مركزاً هناك المرحلون والتجارة في الرأس الأسود بجنوبي تونس ينشط الإنجليز في ليبيا وكانت مدن الأعراس والجزائر وتونس مراكز التجارة بين أوروبا والمغرب أما مدينة البصرة في إيطاليا فكانت أهم مركز للتجارة الإسلامية الأوروبية وتبادل العملات والرقيق: انظر التظليل رقم (١٠).

وحول النشاط الدبلوماسي انظر التظليل رقم (٩) وحول المعاهدات انظر التظليل رقم (٧).

(٢٦) كانت الجزائر في صراع مستمر مع المغرب طوال أيام مولاي إسماعيل من جهة وفي صراع مع تونس استمر طوال القرن الثامن عشر من جهة أخرى وبينما لم يكفد الصراع المغربي الجزائري حدود الصراع على المنطق المحمية كان الصراع الجزائري التونسي شديد العنف، وقد نزل الطيفان الهوي عدة مرات كان لهما لاحتلال الجزائريين لتونس سنة ١٧٥٦م (انظر التفصيل في تيمون ليسي الشهباء، المصنف فصل الفرنسيون، ج ٢،

من ١٧٧٠-١٨٩٠)، كما انشغلت أوروبا بحروب صليبية بين فرنسا وإنجلترا، وإيطاليا وروسيا، هذا إلى جانب الصراع المستمر بين الشمال والجنوب.

(٢٧) كان معلومة فرنسا الصليب أثراً كبيراً في نجاح الأخيرة في تحرير مدينة الجزائر من الأسبان. وطوال القرن الثامن عشر كانت فرنسا وإنجلترا في تنافس مستمر على اكتساب الجزائر كمنفذ في الصراع الذي بينهما، أما عن نفس المعاهدات فمن العدد الكبير للمعاهدات بين الجزائر والجزائر ما هو إلا دليل على مشقة تلك المعاهدات والتنافس المستمر لها من قبل الجزائريين أو الإنجليز انظر:

Payton, *ibidem*, p. 366, 367.

كما لم انتهك المعاهدات بين الجزائر وكل من فرنسا، إنجلترا، والبرتغالية والفرنسية (انظر نشر، الأتراك العثمانيون، من ١٧٧٠، ١٨١٧، ١٨٢٦، ١٨٢٧، ١٨٢٨، ١٨٢٩)، كما انتهكت فرنسا معاهدتها مع الجزائر في أكثر من مرة (انظر نشر، الأتراك العثمانيون، من ١٨٠١، ١٨٠٦، ١٨٠٩).

وتجد نفس النمط من انتهاك المعاهدات بين المغرب وإنجلترا انظر ج ٢، ريجون، تلويع العلاقات الإنجليزية - المغربية حتى عام ١٩٠٠، دراسة وأطروحة دكتور بيتر ليب ريتز (الدار البيضاء، دار الثقافة ١٩٨٦)، من ١٧٧٠-١٨٠٠.

التي كتبت عن تاريخ الجزائر في القرن السابع عشر.^(٦٦) وميجيل دي سرفانتيس الأديب الأسباني الشهير صاحب رواية دون كيخوته.^(٦٧)

وكانت عملية تحرير العبيد تتم في معظم الأوقات نتيجة جهود فردية أو خاصة. والواقع أن كل الأدلة توحي بأن حكومات أي من الطرفين خلال الفترة السابقة على القرن الثامن عشر لم تخط اهتماماً بالغا لتخليص رعاياها بعد استرقاقهم.^(٦٨) وكان العبد الأكبر يقع أساساً على تقارب الرقيق أنفسهم. إذ بعد أن يதாக هؤلاء الأقارب من مصير صاحبهم ومكانه تجري المفاوضات حول شرائه من مالكه الجديد ويتم استخدام وسيط يستطيع التنقل بحرية بين موطن الرقيق ومكان استرقاقه لتسديد الثمن واستلام العبد المصدر وإعادته إلى أهله. وغالباً ما كان هؤلاء الوسطاء من اليهود الذين كانوا في بعض الأحيان يقومون بشراء الرقيق لصاحبهم الخاص وبعده إلى أهله لاسترداد الثمن وتحقيق بعض الأرباح. وفي بعض الحالات القنصلية الفرنسية في تونس نجد العديد من سجلات عقود شراء للرقيق الأوربي بقصد تحريرهم أو التزامات يتعهد الرقيق بدفعها عند عودته لبلاده للشخص الذي قام بتسليفه قيمة مكنته مع مالكه المسلم.^(٦٩) وبالمقابل نرى كذلك عقوداً يتسلم

وتصرفات نجد من الناحية القطعية أن هناك ويستمرار تداخلاً وثيقاً بين وضع المسلم في أوروبا ووضع الأوربي في شمالي إفريقيا كزقيق ووضعه كاسير حرب. إذ على الرغم من أن كلا من الطرفين كان يعامل أسرى الطرف الآخر كزقيق يتم بيعهم ومعاملتهم وفقاً للتعريف السائد لوضع الرقيق في كل جهة، إلا أن إمكانية الفداء هؤلاء الرقيق إما عن طريق الشراء أو التبادل كانت نمطي. في معظم الأحيان. وضع العبودية المؤقتة لهؤلاء الرجال والنساء الذين شاء لهم الحظ أن يصلوا إلى الجانب الآخر. خصوصاً من كان منهم على درجة من الغنى أو النفوذ السياسي. وتورد لنا المصادر التاريخية أسماء العديد من الرجال والنساء الذين قضوا فترة من العبودية ثم تخلصهم منها بالشراء فيما بعد. فمن الجانب العربي نذكر على سبيل المثال لا الحصر المؤلف المشهور الحسن الوزان، المعروف باسم لير الأتروقي الذي اشتراه الفاتيكين واستعمل معرفته وعلمه الواسع للقيام بتأليف الكتاب القيم عن شمال إفريقيا.^(٧٠) ومنهم كذلك عروج القائد البحري المشهور ومؤسس إيالة الجزائر الذي استخدم مجتافاً مربوطاً بالسلاسل في قاع لحد الغلايين.^(٧١) ومن الجانب الأوربي نذكر هليدو المؤرخ الأسباني الذي ترك نتائج تجربته في واحد من أفضل الكتب

any of his subjects then actually in slavery, but it should depend ultimately on His Majesty, or on the friends and relatives of the persons in slavery, to redeem such as they might think fit, agreeing for as reasonable a price as possible with their masters for their redemption."

والواقع أننا نجد تشبهاً مشابهاً لهذا النص الذي يعنى الحكومة من مسؤولية الأرقاء في كافة معاهدات الدول الأوربية مع دول المغرب في تلك الوقت

Finlayson, *Severage*, p. 140.

والسفير والراعي الأوربي نجد بالفكر من إعمال الحكومات الأوربية لعبدها، فنظر على سبيل المثال بلقيش الذي يورد سفا تشير فيه الحكومة الفرنسية مبرراتها بعدم كلفة الرقيق أو إقراضهم نقوداً أو الاختلاط بهم.

J. Balin, *La Condition de la vie des Français dans le royaume d'Alger* (Algiers, 1899), p. 84.

Pierre Goudichamp (ed.), *Le Freret en Tunisie à la fin du 17^e siècle* (1323 - 1408), *Documents inédits* (Tunis : Société

de recensement de l'imprimerie rapide, 1928), pp. 5.8, 11.

Leo Africanus, *De Africae, constantis descriptione de re pace* (76)

et la navigation des ports capotaux portugais aux Indes Orientales et Occidentales, sous Jean Tumparel, 4 vols (Paris, 1886).

Hajj Khalid, *History of the Moroccan Wars of the 17^e century*, sous James Michell (London, 1831).

(70) كتب هليدو ثلاثة كتب لاغنى عنها لأي دارس لتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني. وقد ترجمت الكتب الثلاثة لغة فرنسية.

D. de Hando, *Topographie et Histoire de Alger* (Valledolid, 1612).

D. de Hando, *Discurso de la Captividad* (Valledolid, 1612).

D. de Hando, *Epitome de las Rivas de Alger* (Valledolid, 1612).

(71) حول كتابات دون كيخوته أو دون كيشوت عن تجربته في العبودية انظر

T. Vazier, "Les bagne d'Alger depuis Cervantes," *Revue d'histoire Maghrébine* No. 21-22 (1982): 87-91.

(72) تنص المظلة المذكورة بين كبريترواسياتراً في سنة 1609م على ما يلي

"... the King of Great Britain should not be obliged to redeem

الرق والعلاقات الإسلامية الأوروبية

لم يكن للتناقص بل والاختفاء الكلي للرق بين المسلم من بعض مناطق أوروبا ما يقابله تماثلاً على الجانب الآخر، إذ احتوت مدن الساحل الأفريقي حتى مطلع القرن التاسع عشر أعداداً كبيرة من الرقيق الأوروبي المختلف المصادر. ويعود ذلك لسببين: الأول هو أن الدلائل تشير إلى أن أعداد الرقيق الأوروبي غالت في الأصل أعداد الرقيق المسلم، وكنتيجة لعمليات التبادل تم تحرير معظم الأرقاء المسلمين بينما بقيت عند المسلمين أعداد لا بأس بها من الأرقاء الأوروبيين. والسبب الثاني والأهم هو أن تناقص رغبة الأوروبيين في استرقاق المسلمين لاختفاء جدرانهم الاقتصادية وهدم الرغبة في ممارسة الرق والاسترقاق فوق الأراضي الأوروبية لم يقابله تناقص في جلب الرقيق الأوروبي باتجاه السواحل الإسلامية. ولكن هذا الرقيق لم يعد يجلب كما في السابق من قبل الأفراد أو الجماعات الخاصة سواء اسميناهم القراصنة أو مجاهدي البحر، بل من قبل الحكومات التي بدأت في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر بتجهيز أساطيل بحرية خاصة هدفها مهاجمة سفن الأعداء وشواطئهم إن أمكن واسترقاق من يقع في أيديهم من مواطني تلك الدول^(٢٢). وكان للأساطيل الجزائرية بالذات نشاطاً واسعاً في تلك الفترة إذ قامت بمهاجمة العديد من سفن وشواطئ الدول التي لم تكن في حالة سلم معها. وكان آخر الضحايا الولايات المتحدة الأمريكية التي عندما رفضت دفع الجزية بعد استقلالها عن بريطانيا في ١٧٨٢م قام

رجال البحرية الجزائرية بمهاجمة سفنهم وبدأت زراقات من الرقيق الأمريكي تصل إلى شواطئ الجزائر.

ولابد هنا من التساؤل عن سبب إصرار دول الشمال الأفريقي، والجزائر بالذات، على الاستمرار في سياسة الاسترقاق هذه؟ وأول احتمال يلوح هنا هو رغبة هؤلاء الحكام في الحصول على الفدية التي كانت الحكومات الأوروبية آنذاك على استعداد لدفعها لتحرير رعاياها. هذا ما تقوله على الأقل الوثائق الأوروبية المعاصرة. ولكن الدراسة المتأنية تنفي هذا الاحتمال، فحصة الحكومة أو أشخاصها من نصيب الفداء لم يكن كبيراً. ففي حالة الجزائر على سبيل المثال ترينا وثائق شالر بدراسات سميثوني أن نسبة دخل الحكومة من الفداء إلى مداخيلها الأخرى كانت ضئيلة لا تستحق تلك المخاطرة بتأليب الدول الأوروبية عليها^(٢٣). ثم إن الخزينة الجزائرية، كما هو ثابت ومعروف، كانت على درجة من الثراء تغنيها عن ذلك العائد^(٢٤).

إن الاحتمال الأرجح هو رغبة حكومات الشمال الأفريقي في استخدام الرقيق كعامل ضغط سياسي وعنصر مقايضة في صراعها مع الدول الأوروبية. يتضح ذلك من محاولات المغرب الأكثر من الرقيق الفرنسي والأسباني قبل مفاوضات الصلح مع كل من البلدين^(٢٥). واسترقاق الجزائر للرعايا الفرنسيين في أوقات صراعها مع فرنسا حول حقوق صيد الإسفنج والتجارة في القالة^(٢٦)، أو النزاع المالي بين هولندا والجزائر والدنمرك والجزائر^(٢٧) أو استرقاقها

(٢٢) في سنة ١٧٧٥م ألغت الحكومة الجزائرية الفرصة الخاصة ولم تعد تسمح للأفراد أو المبررات خارج إطار القوات الجزائرية الرسمية أو البشك بالقيام بأي نشاط بحري.

Shaler, Sketches, p. 76.

وفي الحرب، انطلق السلطان محمد في البحر ومع رؤسائه من القراصنة به على الأجانب. وقرق بعض قراصنة على الولايات المطوقة مثل الجزائر وطرابلس وما بقي منها انزل منها المداخيل (التاريخ، الإسطكس، ج ٥، ص ١٢٢).

Shaler, Sketches, pp. 76, 99.

نصر الدين سميثوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (١٧٩٢ - ١٨٢٠م) [الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥م]، ص ١٢٢، ١٢٤.

(٢٣) انظر حول هذا الموضوع سميثوني، النظام المالي، ص ١٧٨، ١٨٧.

(٢٤) التاريخ، الإسطكس، ص ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤.

(٢٥) M. S. Laperrousse, La Conquête de l'Algérie par les Français, Paris: C. L. Lathuillière et Cie, 1861, pp. 52-53.

(٢٦) في سنة ١٨٠٨م وعندما ظهرت كل من الدنمرك وهولندا في دفع القرائب المنتهية عليهم للجزائر قام الداي باسترقاق الهولنديين والدنمركيين الذين في سبيل الجزائر بما فيهم القنصل وفلانتهم وأرسل البحرية الجزائرية الأسر السفن الهولندية والدنمركية واسترقاق رعاياها وسفارتها.

Pavane, Voyage, pp. 261, 268.

يتنافس كان عدوان أوروبا وبمراعاة هجماتها على دول المغرب العربي يزداد. مما جعل الدول الإسلامية تنجأ إلى أي سلاح ممكن للنيل من خصومها وكان الاسترقاق أحد تلك الأسلحة. وبالمثل استعملت دول الجانبين هذا السلاح في الصراع المستمر بينهما منذ العصور الوسطى غير أن التطور الاقتصادي والعسكري في أوروبا في تلك الفترة جعل أوروبا في غنى عن استخدام الاسترقاق كوسيلة للضغط على الدول الإسلامية بينما جعل هذه الأخيرة في حاجة ملحة لاستخدامه للوقوف في وجه القوة الأوروبية المتنامية.

من الصعب للحكم حول ما إذا كان استخدام الرقيق في الصراع المغربي الأسباني أو الجزائري الأمريكي هو الدافع الوحيد لقبول أسبانيا وأمريكا شروط الصلح التي تبذل لصالح دول المغرب، إذ من الممكن القول أن ضعف أسبانيا في نهاية القرن الثامن عشر هو الذي دفعها للبحث عن السلام وتجنب الصراع مع دول المغرب. كما أن تتبع مراحل الصراع الجزائري الأمريكي يبدى بوضوح أن قوة البحرية الجزائرية والتكاليف الباهظة لتجهيز أسطول أمريكي يستطيع حماية التجارة الأمريكية في المتوسط هي التي دفعت الولايات المتحدة لقبول بشروط الصلح مع الجزائر ودفع الاتوات الباهظة للحكومة الجزائرية^(١٤) ولكن الأدبيات الأوروبية في تلك الفترة توحي بأن استخدام دول المغرب العربي للرقيق ورغبة الدول الأوروبية في استغلال ذلك الرقيق هو الدافع الحقيقي والوحيد لنزول الدول الأوروبية عند رغبات دول المغرب. ولقد كان ذلك نذير سوء على ما كان وشيك الحدوث. إذ مع مطلع القرن التاسع عشر بدأ استرقاق المسيحيين الأوروبيين من قبل دول الشمال الأفريقي يتحول من ودية في يد تلك الدول تستخدمها لصالحها إلى هبة عليها ويعتبر تستخدمها الدول الأوروبية في صراعها معها. وهكذا نرى السياسة الإنجليز يدفعون بمؤتمر فيينا المنعقد في ١٨١٥م إلى إصدار بيان، هو الأول من نوعه، يدعو الدول الأوروبية كافة للقضاء على القرصنة المغربية

لبعض الرعايا الأمريكيين عندما نشب النزاع بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية^(١٥) وقد يكون أحد مواقع لجوء هذه الدول إلى إقحام الرقيق كعنصر في الصراع بينها وبين الدول الأوروبية هو إبرائها لتغير ميزان القوى في حوض البحر المتوسط في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر وما معركة تفارين إلا تحصيل حاصل لواقع كان قد بدأ يتضح قبل ذلك بسنين عديدة.

إن تفوق الدول الأوروبية البحري على دول الشمال الأفريقي قد دفع بتلك الدول، أي تونس والجزائر والمغرب، إلى استخدام كافة الوسائل للضغط على الدول الأوروبية لمواجهة ضغوطها. وهكذا نجد هذه الدول تقوم باللجوء إلى استخدام العوامل التجارية، كالامتيازات، أو حقوق الصيد والغوص على الإسفنج، وإقامة المراكز التجارية، والوسائل الدبلوماسية كالمفاوضات والسفارات والمعاهدات والتحالفات المختلفة، إلى جانب العوامل العسكرية في تعاملها مع الدول الأوروبية.

في مثل هذا الوضع من اليديهي أن تستخدم دول المغرب ورقة الرقيق في ذلك التعامل. ولقد ريجت تلك الورقة في مرات عديدة لعل أبرزها الصلح الأسباني مع المغرب والجزائر ورضوخ الولايات المتحدة لمطالب الجزائريين في أواخر القرن الثامن عشر.

الخلاصة

يتضح مما سبق أن الدافع الأساسي لاستمرار بقاء نظام الرق في الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن الثامن عشر هو طبيعة العلاقة بين المنطقتين الأوروبية والإسلامية واستمرارية الصراع بينهما رغم فترات الهدوء والسلام النسبي بين الجانبين. ولقد أظهرت الصفوات الأخيرة من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أن الكفة في ذلك الصراع كانت تميل وبصورة مطردة لصالح الدول الأوروبية، إذ بينما كان التأثير العسكري لدول شمال إفريقيا

وتحرير كافة الرقيق الأوربي في تلك الدول.^(١٠١) لقد كان ذلك إعلان إنذاراً بما سيحدث. إذ في سنة ١٨١٦م قام أسطول إنجليزي هولندي مشترك تحت قيادة اللورد أكسموث بشن هجوم بحري في غلبة العنف والخراسة على مدينة الجزائر فسبب في تعطيل الأسطول الجزائري وتهديم أجزاء عديدة من المدينة وإنزال خسائر فادحة في الأفراد والممتلكات. ولقد أجبر ذلك الهجوم والى الجزائر على توقيع اتفاقية يقوم بموجبها الجزائريون بتحرير كافة الرقيق الأوربي والامتناع عن استرقاق أي أوربي بعد ذلك التاريخ.^(١٠٢)

لاشك أن تحرير الرقيق الأوربي لم يكن هو الدافع الوحيد لتصرف القوى الأوربية ضد الجزائر فلقد سبقه مباشرة انتزاع إيونييا وقبرص من العولة العثمانية وتبعه تعطيل البحرية العثمانية في معركة تقارين. لقد كان الدافع الحقيقي لأوربا في صراعها مع دول المغرب العربي هو فرض سياستها على مياه البحر المتوسط. ولكن يبقى الرق ولو من الناحية الرسمية أحد أسباب الصراع بين دول الشمال الأفريقي والدول الأوربية. ومما لا شك فيه أن استمرار عملية الاسترقاق بعد اضمحلال الحاجة

الاقتصادية لها، قد ساعد بشكل كبير على تأجيل حدة المعاداة والبغضاء بين المسلمين الإسلامي والأوربي المحيطين بالبحوض الغربي للبحر المتوسط وأي قراءة في المصير الأوربية لتلك الفترة التي كانت تتحدث عن حالة الرقيق الأوربي في بلاد المسلمين تعطي الطاريء صورة واضحة عن عمق الشعور السلبي ضد هؤلاء الذين تسببوا في معاناة عدد كبير من المسيحيين.^(١٠٣) كما كان الشمال الأفريقي يزخر بمثل تلك الشعور الناتج عن معاناة المسلمين في بلاد الكفار.

إن استمرارية نظام الرق في وقت انتقلت الحاجة إليه كان من العوامل التي تسببت في ازدياد التوتر والعنف في منطقة لم تكن بحاجة إلى مزيد من الأسباب. وإذا أضفنا إلى ذلك استمرار الشمال الأفريقي في استرقاق الأوربيين في وقت توقف فيه هؤلاء عن استرقاق المسلمين وبدأ بينهم تيار فكري يحارب الرق من حيث المبدأ، فلا مفر من احتساب هذه المؤسسة البغيضة بعد ذاتها سبب من أسباب العدوان الأوربي على عالمنا العربي في مطلع القرن التاسع عشر وماجره هذه العدوان من مصائب.

Shaler, Shalman, pp. 201 - 202

(١٠٢) انظر تفاصيل الحملة والملاحظات التي أعقبتها في

A. Salomon, A Narrative of the Expedition to Algiers in the Year 1816, under the Command of the Right Hon. Admiral Lord Viscount Exmouth (London: John Murray, 1819).

ولكن المؤلف مشاركاً بالحملة بصفته متريماً للورد أكسموث.

DiGillip, The French Image, pp. 62-64, 87 - 100. (١٠٤)

(١٠٣) تمت مناقشة المصراع بيوطنيا في المؤتمر، وعلى الرغم من عدم موافقة المؤتمر على المشروع التقدم من البحر سنتي سعيد، معال بيوطنيا بإصدار معاهدة طرية للدول الأوربية بالقضاء على الرق والقيصة إلا أن الاقتراح حظى باعول بتكلم الحاضرين وأصدر المؤتمر بيانا حول الموضوع وبعد المؤتمر بثلث سنوات قام أسطول العول الأوربية العظمى بإصدار بيوطنيا كس لتكسبال الذي كلف بيوطنيا بدراسة بالقضاء على القرصة والقضاء الاسترقاق انظر نص الإعلان وملحقه في